﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٌ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾ [البلد: 11 - 17]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيان الإنفاق الفاضل من الفاسد

لمّا ذكر سبحانه النّعمَ على الإنسان أخبر أنّه لم يشكر تلك الأيادي والنّعم بالأعمال الصّالحة؛ من فكّ الرّقاب وإطعام اليتامى والمساكين ... إلخ[1]. ويجوز أنّه لمّا ذكر الله سبحانه عن الكافر إنفاقَه الفاسد وغيرَ النّافع، دلّ عبادَه في هذه الآيات على الوجوه الفاضلة الّتي تُنفق فيها الأموال[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾: يدلّ القحم على تورّد الشّيء بأدنى جفاء وإقدام. يُقال: قَحَم في الأمور قُحومًا: رمى بنفسه فيها من غير دُربة. وقُحَمُ الطّريقِ: مصاعبُه. ويقولون: إنّ للخصومة قُحَمًا؛ أي: إنّها تُقحِم بصاحبها على ما لا يهواه، والقُحْمَةُ بالضّمّ: المَهْلَكَةُ[3]، والاقتحام: توسّط شِدّة مخيفة، ودخولٌ في الأمر الشّديد المُخيف بشِدّة من غير تَهيُّؤ أو تهيئةٍ (من غير اختيارٍ أو رَوِيَّة أو إعداد أو إذْن)[4]. ومعنى الاقتحام في الآية: التّجاوز.

2) ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾: (عقب) أصلان صحيحان؛ أحدهما: يدلّ على تأخير شيء وإتيانِه بعد غيره. والأصل الآخر: - وهو المقصود هنا -

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 755.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 168.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قحم).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قحم).

يدلّ على ارتفاعٍ وشِدّة وصعوبة. فالعَقبة: طريقٌ وعْرٌ في الجبل، وجمعها عِقاب. ثمّ رُدّ إلى هذا كلُّ شيء فيه عُلوّ أو شِدّة[1]، ويجمع بينهما بأنّها كلّ ارتفاعٍ أو شِدَّةٍ أو صُعوبةٍ أو غِلَظٍ تلحقُ آخرَ الشّيء أو تكون خَلْفَه يَنْغَمِس فيه فيمتد معه[2]. وقد ذكر المفسّرون في معنى العَقبة في الآية وجهين؛ الأوّل: أنّها عقبةٌ جهنّم، أو هي عقبة بين الجنّة والنّار، أو جبل زلال في جهنّم، أو الصّراط الذي يُضرب على جهنمّ[3]. والثّاني: بمعنى مجاهدة النّفس والشّيطان في أعمال البرّ في الدّنيا[4].

3) ﴿فَكُّ﴾: (فك) أصل صحيح يدلّ على تفتُّح وانفراج. من ذلك فكاك الرّهن، وهو فتحُه من الانغلاق. وحكى الكسائيّ: الفِكاك بالكسر. ويُقال: فككت الشّيء أفكُّه فكًّا. وسقط فلان وانفكّت قدمُه؛ أي: انفرجت. وقولهم: لا ينفكّ يفعل ذلك، بمعنى لا يزال. والمعنى: هو وذلك الفعل لا يفترقان، فالقياس فيه صحيح[5]. وفككتُ الشّيء: خلَّصتُه. وكلّ مشتَبِكين فصَلتَهما فقد فككتَهما، وكذلك التّفْكيكُ، وفَكَّ الرّقبةَ؛ أيْ: أعتقها[6]؛ أي: فكَّ غُلَّ الأسر والرِّقّ عنها[7].

4) ﴿مَسْغَبَةٍ﴾: مصدر على وزن (مفعلة)، مثل: المحمَدَة والمرحمة، من (سغب) وهو أصلٌ واحدٌ يدلّ على الجوع، وسَغِبَ بالكسر يَسْغَبُ سَغَبًا؛ أي: جاع، فهو ساغِبٌ وسَغْبانُ، وامرأةٌ سَغْبى، ويتيمٌ ذو مَسْغَبَةٍ؛ أيْ: ذو مجاعة. قال ابن دريد: قال بعض أهل اللّغة: لا يكون السَّغَب إلّا الجوع مع التّعب. قال: وربّما سُمّي العطشُ سَغَبًا، وليس بمستعمل[8]. والمَسْغَبة في الآية: هي الجوع العامّ مع التّعب النّاشئ من شِدّة الجوع.

5) ﴿مَقْرَبَةٍ﴾: مصدر على وزن (مفعلة)، من(قَرُب) وهو أصل صحيح يدلّ على خِلاف البُعد. يُقال: قَرُب يَقرُب قُرْبًا[9]، والقرابة: القُربى في الرَّحم، وهو في الأصل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (عقب).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).
(3) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 24/ 27.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 168.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فك).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (فكك).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فكك).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المُفردات: (سغب).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرب).

مصدرٌ. تقول: بيني وبينَه قرابةٌ، وقُرْبٌ، وقُربى ومقرَبة ومقرُبة، وقُرْبَةٌ، وقُرُبَةٌ بضمّ الرّاء، قال الفرّاء: إذا كان القريب في معنى المسافة يُذَكّر ويُؤنّث، وإذا كان في معنى النّسب يُؤنّث[1]. والمقربة في الآية: تعني القرابة.

6) ﴿مَتْرَبَةٍ﴾: مصدر على وزن (مفعلة)، من (ترب)، وهو أصلان؛ أحدهما: التّراب وما يُشْتَق منه. والآخر: تساوي الشّيئين. فالأوّل: التّراب، وهو المقصود هنا، فيُقال: تَرِبَ الرّجلُ، إذا افتقر كأنّه لصق بالتُّراب[2]، ويمكن أن يعودا إلى أصل واحد، وهو: تراكمٌ أو توالٍ لأشياء دقيقة أو ناعمة في ظاهر الشّيء لاصقة أو عالقة به: كتراب الأرض، ومن ملحظ التّراكم أو التّوالي: التِّرب بالكسر: اللِّدَةُ والسِّنُّ، وهذه تِرْبُ هذه: لِدَتُها، وُلِدَتْ معها في زمن واحد، ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: 37][3]، والمَتْرَبَةُ: المَسْكَنَةُ والفاقَةُ[4]؛ فقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾؛ أي: ذا لُصوق بالتُّراب من شِدّة فقْرِه[5].

المَعْنى الإجماليُّ:

بيان وجوه الإنفاق الفاضلة لتجاوز مشقّة الآخرة

يَعِظُ ربُّنا سبحانه الإنسانَ أن يتجاوزَ مشقّةَ الآخِرة، ولا يُمْكِنُه ذلك إلّا بإنفاق ماله في وجوه الخير فيأمن، وأيُّ شيء أعلمه: ما مشقّةُ الآخرة، وما يعين على تجاوزها؟ إنّه عِتق رقبةٍ مؤمنة من أسر الرِّق، أو إطعامٌ في يوم ذي مجاعة شديدة يتيمًا - مات أبوه وهو صغير - من ذوي القرابة فيجتمع فيه فضلُ الصّدقة وصلةِ الرّحم، أو فقيرًا معدَمًا لا شيءَ عنده. ثمّ كان مع فِعْل ما ذُكر من أعمال الخير من الّذين أخلصوا الإيمانَ لله سبحانه، وأوصى

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (قرب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترب).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (ترب).
(5) الرّاغب، المُفردات: (ترب).

بعضُهم بعضًا بالصّبر على طاعة الله وعن معاصيه، وتواصَوا بالرّحمة بالخَلق[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتُها:

تفريع اقتحام العقبة على بيان نَجْدَي الخير والشّر

عُطِفَ قَوْلُه تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ على ما قبله بحرف الفاء الدّالّة على التّفريع، ويجوز أن يكون تفريعَ إدماجٍ بمناسبة قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، أي: هديناه الطّريقين، فلم يسلك النّجدَ الموصلَ إلى الخير، ويجوز أن يكون تفريعًا على جملة: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾، ويكون ما بينهما اعتراضًا، والمعنى: أنّه يَدّعي إهلاكَ مالٍ كثير في الفساد؛ من ميسر وخمر ونحوِ ذلك، فأنكر الله تعالى عليه عدمَ إنفاقِ ماله في القُرَب والفضائل بفَكِّ الرِّقاب وإطعامِ اليتامى والمساكين في زمن المجاعة، فإنّ الإنفاق في ذلك لا يخفى على النّاس، خلافًا لما يدّعيه من إنفاق في المعاصي والذّنوب[2].

نوع (لا) في الآية وبلاغة استعمالِها:

أثر حروف المعاني في ثراء البيان القرآنيّ

ورد في قَوْله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ حرف (لا)، ويجوز فيها وجوه؛ **الأوّل:** أنّ تكون (لا) نافية، وهو قول أبي عُبيدة والفرّاء والزّجّاج، كأنّه قال: ووهبنا له الجوارحَ ودللناه على السّبيل فما فعل خيرًا، أي: فلم يقتحم. **والثّاني:** أن تكون دعائيّة، كقوله: (لا نجا ولا سَلِم)، دعاءٌ عليه ألّا يفعل خيرًا. **والثّالث:** أن تكون حرفَ تحضيض، والأصل: "فألا اقتحم"؛ ثمّ حُذِفت الهمزة وهو ضعيفٌ.

والرّاجح كونها غيرَ دعائيّة؛ فإنّ الدّعاء هنا ليس بمناسب أصلًا؛ إذِ المقام مقام ترغيب في فعل هذه الفضائل تَشُكُّرًا لهذا

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 594.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 356.

النّعم الجليلة، لا الكفُّ عنها[1]، ولا مانع من إرادة كلٍّ هاتيك المعاني، مع رُجحان بعضها على بعضٍ، فإنّ القرآن حَمّالٌ.

توجيه عدمِ تكرار (لا):

التّكرار في المعنى يُغني عن التّكرار في اللّفظ

يُلاحظ في قَوْله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ عدمُ تكرارِ (لا)، مع أنّ الكثير في كلام العرب ألّا تقع (لا) الدّاخلة على الماضي إلّا مكرّرةً، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾ [القيامة: 31]، والنُّكْتَة في ذلك أنّها متكرِّرةٌ في المعنى؛ لأنّ معنى ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾: فلا فكَّ رقبةً، ولا أطعم يتيمًا ولا مسكينًا، ففسَّرَ اقتحامَ العقبةِ بذلك، ويجوز أن يكون قولُه الآتي: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ قائمًا مقامَ التّكرير؛ كأنّه قال: فلا اقتحم العقبةَ ولا آمن[2]. قال ابن هشام: "ولو صحّ لجاز: لا أكل زيد وشرب، وقال بعضُهم: (لا) دُعائيّة، دُعاءٌ عليه ألّا يفعلَ خيرًا. وقال آخر: تحضيضٌ، والأصل: فألا اقتحمَ، ثمّ حُذِفت الهمزة"[3]. وقال المُبرِّد وأبو عليّ الفارسيّ: "إنّ (لا) هنا بمعنى (لم)؛ أيْ: فلم يقتحم العقبة، وروِيَ نحو ذلك عن مجاهد، فلهذا لم يَحتج إلى التّكرير[4].

دلالة مفردة ﴿ٱقْتَحَمَ﴾:

الدّخول في أمر شديد ومجاوزتُه في صعوبة

عُبّر في قَوْله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ بالفعل ﴿ٱقْتَحَمَ﴾، ومعناه: الدّخول في أمر شديد ومجاوزتُه في صعوبة، يُقال: قَحَم يَقْحَمُ قُحومًا، واقتحم اقتحامًا وتقحَّم تَقَحُّمًا، إذا ركب القَحْمَ، وهي المهالك والأمور العِظام، أو إذا رمى بنفسه فيها فجأة بلا رويّة[5].

---

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 681.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 156.

(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 321.

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 18.

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 168، والفيروزابادي، القاموس: (قحم)، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 18.

بلاغة الاستعارة في مفردة ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾:

تكلّفُ الأعمالِ الصّالحة شديدٌ على النّفس

تضمّن قَوْلُه تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ استعارةً بديعة، فالاقتحامُ: الدّخول العسير في مكان أو جماعة كثيرين، وهو (افتعال) للدّلالة على التّكلّف، مثل: اكتسب، فشُبِّه تكلّفُ الأعمالِ الصّالحة باقتحام العَقبة في شِدّته على النّفس ومشقَّتِه، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصّلت: 35][1].

تعيينُ مَرجعِ ضميرِ الغَيبة في قوله: ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾:

تنوّعُ المعنى بينَ التّخصيص والتّعميم

يجوز في قَوْله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ أن يكون مرجعُ ضميرِ الغَيبة هو جنس الإنسان الّذي قال سبحانه عنه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾. فأخبر هنا أنّه لم يشكر تلك الأيادي والنّعمَ بالأعمال الصّالحة؛ من فكِّ الرّقابِ وإطعامِ اليتامى والمساكين ... إلخ[2]. ويجوز أن يكون المقصودُ الرّجلَ الكافرَ الّذي يقول: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾، فلمّا ذكر اللّه سبحانه إنفاقَه الفاسدَ وغيرَ النّافع، دلّ في هذه الآيات على الوجوه الفاضلة الّتي تُنفَق فيها الأموالُ[3].

دلالة لفظ ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾:

مشقّةُ مجاهدةِ الإنسان نفسَه في فعل أعمال البِرّ حتّى يتغلَّبَ على عقبة الآخِرة

عُبِّر في قَوْله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ بلفظ ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾، وهي طريقٌ في الجبل وعْرٌ، يشُقّ سلوكَها على أكثر النّاس، وقد ذكر المُفسِّرون في معنى العقبة هاهنا وجهيْن؛ أنّها عقبةُ النّفس التي تحتاج إلى مجاهدة، أو عقبةُ جهنّم، على النّحو الذي أسلفنا من قبل. ولا مانع من إرادة العقبتيْن معًا؛ فمَنِ اقتحم عقبةَ الدّنيا بأن جاهد نفسَه والشّيطانَ في أعمال البِرّ في الدّنيا مع الإيمان الصّادق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 356.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 755.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 168.

والعملِ الصّالح؛ استطاع أن يتَغَلَّب على عقبة الآخرة، وهي النّار المُؤصدة في جهنّم، وينجو منها.

فائدة تعريف لفظ ﴿ٱلۡعَقَبَةُ﴾:

تعريف الشّيء باعتبار عهديّتِه في الذّهن

جاء لفظُ ﴿ٱلۡعَقَبَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ معرّفًا بحرف (أل) الدّالّة على تعريف الجنس، ويُسمّيها البلاغيّون (لام الحقيقة)[1]، أي: حقيقة العقبة، وهي الطّريق الوَعْرُ في الجبل، وهي تعرُّفُ حقيقةٍ ذهنيّةٍ يُراد بها فردٌ مُبهَمٌ من أفراد الحقيقة باعتبار عهديّتِه في الذّهن لاشتمال الحقيقة عليه كما في قوله: ﴿أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: 13] وقولِهم: ادخل السّوق[2].

ويجوز أن يكون مُعرَّفًا بحرف (أل) الاستغراقيّة التي تَعُمُّ سائرَ أفرادِ العقبات، وتشملُ أنواعَها التي ذكرتها السّورةُ، والتي لم تذكرها، ويكون المعنى: فلا اقتحم عقباتِ الدّنيا بمجاهدة نفسِه والشّيطانِ في سائر أعمال البِرّ في الدّنيا التي لا تُقبل إلّا بالإيمان الصّادق وإخلاصِ العمل الصّالح لله تعالى، استطاع أن يقتحم عقبةَ الآخِرة يومَ القيامة، فينجو منها.

بلاغة الاستعارة في مفردة ﴿ٱلۡعَقَبَةُ﴾:

أثر تشبيه المعقول بالمحسوس على النّفوس

تضمّن قولُه تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ صورةً بيانيّة بديعة، فقد استُعير لفظُ ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾ للدّلالة على العمل الموصل للخير؛ لأنّ عَقَبة النّجدِ أعلى موضع فيه، فهي اسْتعارَة تصريحيّة تحقيقيّة، ووجهُ الشّبهِ: العُلوُّ والرِّفعة عند الله في المُشبّه، والعُلوّ الحِسّيّ في المُشبّه به، وكون المشبّه به الطّريقَ في الجبل دون الجبل لكون المُشبَّه طريقًا موصلًا إلى الجِنان والرّضوان، ولكلّ نجد عَقَبة ينتهي بها، وفي استعمال (الاقتحام) ترشيحٌ لاستعارة العقبة لطريق الخير،

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 21.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 263.

وهو مع ذلك استعارة أخرى؛ لأنّ تزاحم النّاس إنّما يكون في طلب المنافع، وأفاد نفيُ الاقتحام أنّه عَدل عن الاهتداء إيثارًا للعاجل على الآجل، ولو عزم وصبر لاقتحم العَقبة.

وقد تتابعت الاستعارات الثّلاث: النّجدين، والعَقبة، والاقتحام، وبُنِيَ بعضُها على بعض، وذلك من أحسن الاستعارة، وهي مبنيّة على تشبيه المعقول بالمحسوس[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾:

الاعتراض بتفخيم شأن العَقبة

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ على ما قبله بحرف الواو؛ لأنّه خرج مخرجَ الاعتراضِ تعظيمًا لشأن العَقبة، وتعظيمًا لأمر الدّين، ولا بدّ من تقدير محذوف؛ لأنّ العَقبة لا تكون فكَّ رقبةٍ، فالمُراد: وما أدراك ما اقتحام العَقبة[2].

نُكْتَة الاستفهام بـ (ما) الأولى والثّانية:

تعظيم شأن العَقبة، والتّشويقُ إلى معرفتها

أفاد الاستفهامُ بلفظ (ما) الأولى والثّانية في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ التّشويقَ إلى معرفة المُراد من العَقبة، كما يتضمّن تعظيمًا لقَدْرها وتنويهًا بها، وأنّها لأهمّيّتها يسأل عنها المخاطَب: هل أعلمَه مُعْلِمٌ ما هي؟ أي: لم يقتحم العقبة في حال جدارتها بأن تُقتَحم[3]. ويستعمل هذا الأسلوب في القرآن في مواضع التّفخيم والتّعظيم، أو في مواطن التّهويل والتّفظيع[4].

دلالة مجيء ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ بصيغة الماضي:

شيوع الماضي في المتحقّق، والمضارع في الغَيبيّ

ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ الفعلُ ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ بصيغة الماضي؛ للدّلالة على تحقّق الإدراك، قال ابن عبّاس: "ما قال تعالى فيه: (وما أدراك) فقد أدراه، وما قال تعالى فيه: (وما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 356، والقونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 681.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 169.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 357.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 347.

يُدريك) لم يُدره به"، وقال سفيان بن عيينة: "كلّ شيء قال فيه: وما أدراك؟ فإنّه أُخبر به، وكلّ شيء قال فيه: وما يدريك؟ فإنَّه لم يُخبر به".

وقد وردت عبارة (وما أدراك) في القرآن في ثلاث عشرة آية، ووردت عبارة (وما يدريك) في ثلاث آيات، كلّها في سياق الغيب والسّاعة، هي: [الشّورى: 17]، و[الأحزاب: 63]، و[عبس: 3]، فالتّزكية لا يعلمها إلّا الله سبحانه[1].

تعيين مرجع ضمير الخطاب في قوله: ﴿أَدْرَىٰكَ﴾:

اختلف العلماء في مرجع ضمير الخطاب من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾، فقال بعضهم: هو خطاب للكافر على وجه الزّجر له، وقال الأكثرون: إنّه خطاب للرّسول ﷺ، وإنّما خاطبه بذلك لأنّه ما كان عالمًا بذلك قبل الوحي، ورجّح بعضهم أنّ الخطاب لغير معيّن لأنّ هذا بمنزلة المثل[2]. ولا مانع من إرادة كلّ هذه المعاني، ويكون تخصيص الرّسول ﷺ بالخطاب تشريفًا له وتعظيمًا، كأنّه وحدَه الذي يدري هذا الأمر، والنّاس تبعٌ له في الخطاب، أمّا خطاب المؤمن فيكون على وجه التّشريف والتّعظيم، لأنّه من أُمّته ﷺ، فيناله من التّشريف والتّعظيم على قدر تمسّكه بالدّين واتّباعه لسُنّته ﷺ، وأمّا خطاب الكافر فيكون على وجه الإنكار عليه والزّجر له، مع التّهديد والوعيد.

تخصيص الرّسول ﷺ بالخطاب، والنّاس تبعٌ له من بعده

بلاغة الاستفهام عن العقبة بعد الإخبار عن نفي اقتحامها:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ الاستفهامُ عن العَقبة بعد الإخبار عن نفي اقتحامها؛ لزيادة تقريرها وكونها عند الله بمكانة رفيعة، ولا بدّ هنا من تقدير محذوف؛ لأنّ العَقبة لا تكون

زيادة التّقرير والتّنويه برفعة مكانتها

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 66، والهلال، تفسير القرآن النّريّ: 25/ 25.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 80، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 357.

فكَّ رقبةٍ، فالمُراد: وما أدراك ما اقتحامُ العَقبة؟ وهذا تعظيمٌ لأمر التزام الدّين[1].

دلالة الحذف في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾:

كثرة المعاني مع قِلّة الكلمات

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾: محذوف؛ لأنّ العَقبة لا تكون بفَكِّ الرّقبة والإطعام المذكور، وتقدير المحذوف إنَّما يكون على حسب المعنى الممكن في الآية، فيمكن أن يكون التّقدير: وما أدراك ما العمل الذي يُقْتَحَم به عقبة الدنيا، وما السّبيل إلى اقتحام عقبة الآخرة.

جمال الفصل في جملة ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾:

تَنَوُّع المعاني تبعًا لتنوّع أسباب الفصل حسب الإعراب

فُصل قَوْلُه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ عن سابقه لوجود كمال الاتّصال بينهما، وهو اتّحاد الجملتَين اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تُنزّل الثّانية من الأولى منزلةَ نفسها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ على قراءة رفع ﴿فَكُّ﴾ وإضافته إلى ﴿رَقَبَةٍ﴾ بيانًا للعقبة، والتّقدير: هي فكّ رقبة، فحُذف المُسنَد إليه حذفًا لمتابعة الاستعمال. وتبيين العقبة بأنّها: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ مبنيٌّ على استعارة العَقبة للأعمال الصّالحة الشّاقّة على النّفس، تشبيهًا للمعقول بالمحسوس، وأمّا على قراءة ﴿فَكَّ﴾ بفتح الكاف على صيغة الفعل الماضيّ، وبنصب ﴿رَقَبَةً﴾ على المفعول لـ ﴿فَكَّ﴾ تكون جملة: ﴿فَكَّ رَقَبَةً﴾ بيانًا لجملة ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ وما بينهما اعتراض، أو تكون بدلًا من جملة ﴿ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾، فعلى الأوّل يكون التّقدير: فلا اقْتحم العقَبَةَ ولا فكَّ رَقَبَةً، وما بينهما اعتراض[3]، وعلى الثّاني يكون التّقدير: فلا فكَّ رَقَبَةً ولّا أطْعَمَ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 169، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 162.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 357.

براعة استعمال مفردة ﴿فَكُّ﴾ دون (تحرير):

تصوير معاناة الرّقّ واستحضارُ مشهدِ القيود والأغلال

أوثِر في قَوْله تَعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ التّعبيرُ بلفظ ﴿فَكُّ﴾ دون غيره لنُكتة تصوير معاناة الرّقّ، وأنّه كالقيد والغُلِّ، فالفَكّ: الفرق بين الشّيئين بإزالة أحدهما عن الآخر، كفَكِّ القَيْدِ والغُلِّ، ولا يكون فكّ الرّقبة إلّا بالفرق بينها وبين صفة الرّقّ بإيجاب الحرّية، والمعنى: إعتاق نسمة بتخليصها من أسر الرّقّ، أو من القتل، أو من يد كافر، وسُمّي العتق فكًّا؛ لأنّ الرّقّ كالقيد، وسُمّي العبدُ المرقوق رقبةً؛ لأنّه بالرّقّ كالأسير المربوط في رقبته[1]، وقال بعض العلماء: إنّ الفَكّ هو أخذ الشّيء من يد مَنِ احتاز به، فأُطلِق الفَكّ على تخليص المأخوذ في أسر أو مِلك، لمشابهة تخليص الأمر العسير بالنّزع من يد القابض الممتنع[2].

دلالة إضافة ﴿فَكُّ﴾ إلى رقبة:

تحقيق المسارعة إلى فعل ذلك، مع تخفيف اللّفظ بإضافته إلى معموله

الإضافة في قَوْله تَعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ على قراءة الرّفع من باب إضافة المصدر إلى معموله، وهي عند النّحاة إضافةٌ غير محضة، وهي كذلك عندهم لا تفيد تعريفًا ولا تخصيصًا في المعنى، وإنّما تُفيد التّخفيفَ بحذف التّنوين، ولهذا تُسمّى أيضًا إضافةً لفظيّة لرجوع فائدتها إلى النّطق باللّفظ، ولمّا كان إعمال المصدر واسمُ الفاعل عندهم يدلُّ على الحال والاستقبال، وإضافتُه إلى معموله تدلّ على الماضي، كان في إضافته إلى معموله ما في الفعل الماضي بدلالته على تحقّق وقوع الفعل، وفي هذا إشارةٌ إلى وجوب المسارعة إلى فكّ الرّقبة والإطعام على الوصف المذكور.

بلاغة المجاز المرسل في لفظ ﴿رَقَبَةٍ﴾:

تصوير ذُلّ العبد بذُلّ رجل وُضِعَ الغُلُّ في رقبته

تضمّن قولُه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ صورةً بيانيّة من نوع المجاز

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 18.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 357.

المرسل الّذي علاقته الجُزئيّة، فإنّ الرّقبة مُرادٌ بها الإنسان، من إطلاق اسم الجُزء على كلّه، مثل إطلاق رأس وعين ووجه، وإيثارُ لفظِ الرّقبة هنا لأنّ المُراد ذاتُ الأسير أو العبد، وأوّل ما يخطر بذِهن النّاظر لواحد من هؤلاء هو رقبتُه؛ لأنّه في الغالب يوثَق من رقبته[1]، وفي ذلك تصويرُ ذُلِّ العبد في صورة رجلٍ وُضِعَ الغُلّ في رقبته، فأحاط به الذُّلَّ من كلّ جانب.

بلاغة الكناية في لفظ ﴿رَقَبَةٍ﴾:

فـكُّ المـرءِ رقبـةَ نفسِـه مـن رقّ الذّنوب

الظّاهر في قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أنّ معناه الحثّ على العتق وتحرير العبيد، وذهب بعضُ العلماء إلى أنّه كناية عن التّقوى، أي: أن يَفُكّ المَرءُ رقبةَ نفسِه من الذّنوب، وبما يتكلَّفُه من العبادة الّتي يتخلص بها من النّار، ويصير بها إلى الجنّة، فهي الحرّيّة الكبرى. قال الماورديّ: يحتمل أنّه أراد فكَّ رقبتِه وخلاصَ نفسِه باجتناب المعاصي وفعلِ الطّاعات، واللّفظ يساعد على هذا التّأويل[2]، ولا مانع من إرادة المعنَيين معًا، بل هو الأصل في الكناية، ففَكُّ الإنسانِ الرِّقابَ في الدّنيا والإطعامُ على الوجه المذكور سببٌ في فكِّ رقبتِه من عذاب النّار يوم القيامة.

نُكْتَةُ تقديمِ فكِّ الرّقبة على الإطعام:

العِـتـقُ أفضـلُ مـن سائـر أنـواع الصّدقة

يُلاحظ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ﴾ تقديمُ النّظمِ الكريم لفَكّ الرّقبة على الإطعام، فقال بعض العلماء: "تقديم العتق على الصّدقة يدلّ على أنّه أفضل منها، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وقد ورد في الكتاب الكريم والسّنة التّرغيبُ في العتق والحثّ عليه، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «مَن أعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، أعْتَقَ اللّه بكُلِّ عُضْوٍ منه عُضْوًا مِنَ النّارِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 358.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 169، والشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 539.

حتَّى يُعْتِقَ فرْجَهُ بفَرْجِهِ»[1]، وقال الرّاغب: "فكّ الإنسان غيرَه من العذاب إنّما يحصل بعد فكّ نفسِه منه، فإن مَن لم يَهْتَدِ ليس في قوّتِهِ أن يَهْدي، وفكُّ الرّقبة من قبيل فكِّ النّفسِ؛ لأنّه من الأعمال الصّالحة الّتي لها مدخلٌ عظيم في فكِّها"[2].

دلالة حرف ﴿أَوْ﴾:

التّنويع في خصال الخير المنجيَة لصاحبها من عَقَبة جهنّم

عُطف قولُه تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ بحرف ﴿أَوْ﴾ للدّلالة على التّنويع في خصال الخير والأعمال الصّالحة المنجية لصاحبها من عَقَبة جهنّم والعياذ بالله، والتّنويع فرع عن التّخيير، والفرق بينه وبين التّخيير: أنّ التّخيير لا يبيح الجمع بين الشّيئين أو الأشياء، والتّنويع يبيحه، فيجوز الجمع بين فكّ الرّقاب وإطعام اليتامى والمساكين وسائرِ أعمال البرّ[3].

توجيه القراءات القرآنيّة في لفظ ﴿إِطْعَٰمٌ﴾:

القراءة مع القراءة كالآية مع الآية

تنوّعت القراءةُ في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائيُّ ﴿أَوْ أَطْعَمَ﴾ بفتح الهمزة والميم من غير تنوين، ولا ألف قبلها، وقرأ الباقون ﴿إِطْعَٰمٌ﴾ بكسر الهمزة ورفع الميم مع التّنوين وألف قبلها[4]. فوَجْهُ قراءةِ الرّفع ﴿إِطْعَٰمٌ﴾ أنّه مصدرٌ مفردٌ غيرُ مضاف، فثبت التّنوينُ فيه لمكان الإفراد. ووَجْهُ قراءةِ الفتح ﴿أَطْعَمَ﴾ أنّه بُنيَ بناءَ الفعلِ الماضي، وفاعلُه الإنْسانُ المُقدّم ذِكْره[5].

الترغيب في تَجَدُّدِ الإطعام

ولمّا كان إعمال المصدر واسمِ الفاعل عند النُّحاة يدلُّ على الحال والاستقبال، بخلاف إضافته إلى معموله؛ فإنّها تدلّ على الماضي؛ كان في إعماله وتنوينه ما في الفعل المضارع من الدّلالة

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (6715)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1509).
(2) الرّاغب، المُفردات: (فكك).
(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 251.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 401.
(5) ابن خالويه، الحُجّة، ص: 371.

على الحال والاستقبال والتّجَدُّدِ والاستمرار، وفي هذا إشارةٌ إلى التّرغيب في تَجَدُّدِ الإطعام على الوصف المذكور واستمراره، والمسارعة إلى فعل ذلك.

وبمجموع القراءتين يشمل الإطعامُ الزّمانَ كلّه، فقراءةُ الفتحِ (أَطْعَمَ) بصيغة الفعل الماضي تدلّ على الماضي بلفظه، وقراءة ﴿إِطْعَٰمٌ﴾ بصيغة المصدر العامل يدلُّ على الحال والاستقبال والتَّجَدُّدِ والاستمرار.

بلاغة حرف ﴿فِى﴾:

الإطعام زمن المجاعة أثقلُ على النّفس وأوجبُ للأجر

ورد في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ حرفُ ﴿فِى﴾، وهو دالٌّ على الظّرفيّة الزّمانيّة، ونُكْتَة الظّرفيّة الدّلالةُ على أنّ الإطعام زمنَ المجاعةِ أجرُهُ عظيم؛ وذلك لأنّ إخراج المال في ذلك الوقت أثقلُ على النّفس وأوجبُ للأجر[1]، وفي هذا من جمال التّصوير المبالغةُ في وصف شدّة الجوعِ وعمومِه، بجعل يوم المجاعة وشِدّةِ الجوع فيه محيطًا بالإنسان إحاطةَ الظّرف بالمظروف، وإحاطةَ الثّياب واللّباس بالإنسان، وامتداد ذلك الزّمان بالإنسان مع هذه الإحاطةِ.

غرضُ التّعبيرِ بالظَّرفِ ﴿يَوْمٍ﴾:

العمل يَعظُم أجرُه حسبَ زمانِه ومكانِه

عُبّر في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ بلفظ ﴿يَوْمٍ﴾، والمُراد به الزّمانُ لا النّهارُ المعروف، ولا اليومُ الذي يشمل النّهار واللّيل، وفي التّعبير به دلالةٌ على أنّ العمل يَعظُم أجرُه حسبَ زمانِه ومكانه، فالعملُ الصّالح في رمضان مثلًا يُضاعَف فيه الأجرُ، وكذلك هنا، فالإطعامُ في زمن المسغبة أفضلُ من الإطعام في وقت الرّخاء، لشِدّة البخل في ذلك الوقت، خوفًا من الجوع والاحتياج، ولسَدِّ مجاعةِ المحتاجين من اليتامى والمساكين وغيرهم.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 20.

دلالة الوصف بـ﴿ذِى مَسْغَبَةٍ﴾:

اشتـدادُ بُخلِ النّـاس زمـنَ المجاعة

أُضيف في قوله تعالى: ﴿يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ اسمُ ﴿ذِى﴾ إلى المسغبة، وهذه الإضافة تُفيد اختصاصَ ذلك اليوم بالمَسغبة، أيْ: يوم تشتدُّ فيه المجاعةُ وتَعْظُم، وذلك زمنُ البردِ وزمنُ القَحْطِ، ووجهُ تخصيصِ اليوم ذي المَسغبة بالإطعام فيه أنّ النّاس في زمن المجاعة يشتدّ شُحُّهم بالمال، خشيةَ امتدادِ زمنِ المجاعة والاحتياج إلى الأقوات، فكان الإطعامُ فيه عقبةً شديدةً تشُقّ على النّفس، ولهذا مدح الله سبحانه مَن يُؤتي المالَ ويُطعِم الطّعامَ مع شدّة حُبّه له وشِدّة احتياجِه إليه[1].

بلاغة استعمال مفردة ﴿مَسْغَبَةٍ﴾ دون (مجاعة):

المسغبةُ جوعٌ شديدٌ أو جوعٌ مع تعب

أوثِر في قوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ التّعبيرُ بلفظ ﴿مَسْغَبَةٍ﴾، وقد فسّره أئمّةُ السّلفُ بالجوع أو المجاعة. قال أبو عبيدة: ذي مجاعة؛ يُقال: سَغَبَ يَسْغَبُ سَغَبًا: إذا جاع، فهو ساغِب، وسَغْبانُ، وذو مسغَبَةٍ. وقال ابن عبّاس: يريد بالمَسْغبة الجوعَ، وقال مجاهد وعكرمة: ذو مجاعة، وقال الحسن: يومٌ محروصٌ فيه على الطّعام[2].

فالظّاهر أنّ أكثر المُفسّرين من السّلف جعلوا المسغبة بمعنى الجوع من غير قيد. وقال أبو حيّان: المسغبة الجوع العامّ، وقد ذكر الرّاغب فرقًا لطيفًا بين المسغبة والمجاعة، فقال: "المسغبة من السَّغَب، وهو الجوع مع التّعب، وقد قيل: في العطش مع التّعب"، فزاد وصفَ التّعبِ مع الجوع أو العطش[3].

جمال المجاز في ﴿يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾:

إسنـاد الفعل إلـى زمانـه لوقوعه فيه

يُلاحَظ في قوله تعالى: ﴿يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ إسنادُ المسغبة إلى اليوم، والأصل أنّها للإنسان الّذي يُصيبُه الجوعُ في ذلك اليوم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 358.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 29.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 479، والرّاغب، المُفردات: (سغب).

فيكون هذا الإسناد على سبيل المجاز العقليّ الذي علاقته الزّمانيّة لوقوع الجوع في ذلك اليوم[1]، وفي هذا مبالغةٌ في وصف شِدّة مجاعةِ النّاس بوصف الزّمان نفسِه بالمجاعة.

سرُّ التّعبير بـ (المسغبة) بدلَ (السّغَب):

خيرُ الإطعام ما كان على مسغبة

أوثِر في قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ التّعبيرُ بلفظ ﴿مَسۡغَبَةٖ﴾ لا (سَغَب)؛ لأنّ ذلك أبلغُ في الدّلالة على شدّة الاحتياجِ إلى الطّعام؛ لأنّ (المسغبة) و(المجاعة) ألفاظٌ تدلّ على تَحَقُّقِ الجوع الشّديد في جمع النّاس في سائر المكان في وقتٍ واحدٍ.

بلاغة التّعريض بالمشركين في فكّ الرّقاب والإطعام:

تعيير المشركين بالتّفاخر والسّمعة وعدمِ الإخلاص

ذكر بعضُ العلماء أنّه إن كان المُراد بالإنسان الجنسَ المخصوص بالمشركين في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾؛ كان نفيُ فكّ الرّقاب والإطعام كنايةً عنِ انتفاء تحلّي المشركين بشرائع الإسلام؛ لأنّ فكّ الرقاب وإطعامَ الجياع زمنَ المجاعات من القُرُبات الّتي جاء بها الإسلام. وفيه أيضًا تعريضٌ بتعيير المشركين بأنّهم إنمّا يُحبّون التّفاخرَ والسّمعةَ والمؤانسةَ، وذلك غالبُ أحوالهم؛ أيْ: لم يطعموا يتيمًا ولا مسكينًا في يوم مسغبةٍ، وليس مثلَ إطعامِكم في المآدب والولائم والمنادمة الّتي لا تعود بالنّفع على المطعِمين.

وإن كان المُرادُ من الإنسان واحدًا معيَّنًا، جاز أن يكون ذمًّا له باللّؤم والتّفاخر الكاذب، وفضحًا له بأنّه لم يسبق منه عملٌ نافعٌ لقومه قبلَ الإسلام، فلم يَغْرَم غرامةً في فِكاك أسير أو مأخوذٍ بدمٍ أو منٍّ بحُرّيَّةٍ على عبدٍ[2].

نُكْتَة تقديم ﴿فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ على ﴿يَتِيمًا﴾:

الاهتمام بزمن الإطعام أكثرُ من غيره

يُلاحَظ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمًا﴾

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 681.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 359.

تقديمُ شبهِ الجملة ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ على المفعول به ﴿يَتِيمًا﴾، والنّكتة في هذا تقديمُ الاهتمامِ بزمن الإطعام أكثرَ من غيره، إذ يعظُم الأجر على قدر المشقّة، ويتفاوت الثّوابُ حسبَ الأزمنة والأمكنة، ولاشكّ أنّ الإطعام في زمن الشّدّة والمسغبةِ ليس كالإطعام في زمن الرّخاء والميسرة، ولهذا كان العربُ يتمدّحون بإكرام الضّيف في زمن الشّتاء لعظَمِ الحاجة إلى الطّعام، وقِلّتِه في ذلك الوقت.

نُكْتَة تقديم ﴿يَتِيمًا﴾ في الإطعام:

تخصيص اليتيم لصِغَر سِنِّه وضعفِهِ

أوثِر في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا﴾ تقديمُ إطعام اليتيم على المسكين، ونُكْتَة ذلك مراعاةُ الأضعف والأحوج، فاليتيمُ طفلٌ ليس له أبٌ، وهو دونَ البلوغِ، فخُصِّص بالإطعام لأنّه مَظِنّةُ قِلّة الشِّبع، ولو كان غنيًّا، لصِغَر سِنّه وضعفِ عمله وفَقْدِ مَن يعولُه، ولحيائه من التّعرّض لطلب ما يحتاجه، فلذلك رُغِّبَ في إطعامه وإن لم يصل حَدّ المَسْكَنة والفقر[1].

فائدة تنكير ﴿يَتِيمًا﴾ و﴿مِسْكِينًا﴾:

جاء التّعبيرُ عن اليتيم والمسكين بالاسم النّكرة ﴿يَتِيمًا﴾ و﴿مِسْكِينًا﴾، وتنكير الاسمين في الآية يُراد به تعظيمُ اليُتْم والمسكنة، للإشارة إلى بلوغ اليتيم والمسكين في كلٍّ من اليُتْمِ والمَسْكَنَة أسوأ أحوالِهما.

غرض التّعبير بقوله: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾:

الصّدقة على الأقارب صدقةٌ وصلةُ رَحِمٍ

أوثِر في قوله تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ تقييدُ وصفِ اليتيم بأن يكون بينَه وبين المُطعِم قرابةٌ؛ وذلك لأنّه اجتمعت فيه جهتا الاستحقاق: اليُتم والقَرابة، فإطعامُه أفضل؛ لاشتماله على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 358.

الصّدقة وصلة الرّحم[1]، وهذا نحو ما قال رسولُ الله ﷺ لزينبَ امرأةِ عبد الله بن مسعود عندما سألت رسولَ الله ﷺ: «أيجزئُ عنّي منَ الصَّدقةِ النَّفقةُ على زَوجي، وأيتامٍ في حِجري؟ قالَ رسولُ الله ﷺ: لَها أجرانِ: أجرُ الصَّدقةِ، وأجرُ القرابةِ»[2].

فائدة إضافة الصّحبة إلى المَقربة في قوله: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾:

ملازمة القرابة لليتيم

جاء قولُه تعالى: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ بلفظ ﴿ذَا﴾ بمعنى (صاحب) لما يُفيده لفظُ الصُّحْبَة من معنى الملازمة، فصحابةُ رسولِ الله ﷺ هم المُلازِمون له في الرّخاء والشّدّة، وأصحابُ النّار وأصحابُ الجنّة هم الملازمون لها، وهكذا، والمعنى: إطعام يتيم ملازم للقرابة، لا ينفكّ عنها بحال.

دلالة ﴿أَوْ﴾ وفائدتُها:

تنويع أفعالِ الخيرِ ووجوهِ البِرِّ

عُطف قولُه تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ بحرف ﴿أَوْ﴾، وهو هنا للتّقسيم، ويدلّ على معنى الإباحة ومعنى التّخيير؛ لأنّ الكلام يتضمّن معنى الحضّ والأمر، وفيها أيضًا معنى التّفضيل المجرّد، لأنّ الكلام يجري مجرى الخبر الّذي لا تكون (أو) فيه إلّا منفصلةً، وأمّا معنى الشّكّ أو الإبهام فلا مدخلَ له في هذه الآية[3].

توجيه اختيار لفظِ ﴿مِسْكِينًا﴾ دون (فقيرًا):

سكون حركات المسكين من شِدّة الجوع والجُهد

أوثِر في قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ التّعبيرُ بلفظ ﴿مِسْكِينًا﴾ دون لفظ (فقيرًا) أو نحوه لنُكْتَة مناسبةِ سياق الإطعام، فالمسكينُ مأخوذٌ من السّكون، أي: سكنت حركتُه من شدّة الجوعِ والجهدِ، فكان أولى بالإطعام لضَعْفِه وشدّة حاجته. كما يُلاحظ

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 486.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (1000).
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 486، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 359.

أنّ القرآن الكريم يكتفي بلفظ (المسكين) عن (الفقير) في أكثر الآيات، كما في [البقرة: 177] و[الإنسان: 8 - 9][1].

غرض التّعبير بقوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾:

دلالـــةُ المَـتربـةِ على شدّة الفقر والحاجة

ورد في قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ لفظُ ﴿مَتْرَبَةٍ﴾، وهو مفعَلَة من التُّراب، يُقال: تَربَ يترَب تَرَبًا ومَتْرَبَةً مثل مسغبَةً، وأصل تَرِب: ألصق جِلدَه بالتّراب لجلوسه في حفرة لعدم ما يستره، أو ألصق بطنَه بالتّراب لشِدّة الجوع، قال سفيان: هم المطروحون على ظهر الطّريق قعودًا على التّراب لا بيوتَ لهم، وقال ابن عبّاس: هو الذي يخرج من بيته ثمّ يقلب وجهه إلى بيته مستيقنًا أنّه ليس فيه إلّا التّراب. وعلى جميع التّقديرات يلزم من ذلك فرْطُ الفقر بحيثُ يستحقّ الإطعام[2].

بلاغة الكناية في قوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾:

شهرة التّراب في الكناية عن الفقر

يجوز أن يُحمل قولُه تعالى: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ على الكناية، فالمَتربة من: (ترِب) إذا نام على التّراب؛ أيْ: لم يكن له ما يفترشُه على الأرض، وهو في الأصل كنايةٌ عن العُروِّ من الثّياب الّتي تحول بين الجسد والأرض عند الجلوس والاضطجاع، وقريبٌ منه قولهم في الدّعاء: تربت يمينُك، وتربت يداك[3].

ولشُهرة هذه الكناية نجد بعض السّلف من المُفسِّرين قد حملوا (المتربة) هنا على معاني سياقيّة، فقال مجاهد: هو الّذي لا يقيه من التّراب لباسٌ ولا غيره، وقال قتادة: هو ذو العيال، وقال عكرمة: هو المديون، وقال أبو سنان: هو ذو الزّمانة، وقال ابن جُبير: هو الذي ليس له أحد، وقال عكرمة: هو البعيد التّربة الغريب عن وطنه ... إلخ[4].

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 681.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 486.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 359.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 21.

فائدة الإضافة في ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾:

ملازمة القَرابة لليتيم

جاء قولُه تعالى: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ بلفظ ﴿ذَا﴾ بمعنى (صاحب) لما يُفيده لفظُ الصُّحْبَة من معنى الملازمة، فصَحابةُ رسولِ الله ﷺ هم المُلازمون له في الرّخاء والشّدّة، وأصحابُ النّار وأصحاب الجنّة هم الملازمون لها، وهكذا، والمعنى: إطعام مسكينًا ملازمًا للمَتربة، لا ينفكّ عنها بحال، فلا يجد الثّيابَ الّتي تحول بين جسده والأرض عند الجلوس والاضطجاع في كلّ حال.

جمال التّعبير بصيغة (مفعلة) في الآية:

دلالـــة هـذه الصّيغة الواحدة على معانٍ كثيرة

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بصيغة (مفعلة) في (المسغبة) و(المقربة) و(المتربة) لما تحمله هذه الصّيغة من المعاني، إذ تأتي صيغة (مفعلة) للدّلالة على المصدر أو اسم المصدر، كـ(مَحْزَنَة)، واسم زمان كـ(مَيْسَرة)، واسم مكان كـ(مَيْمَنة)، وللدّلالة على الكثرة أو سببِها أو هما معًا كـ(مطهرة)، والتّمييز بين هذه المعاني إنّما يكون بالقرائن، فإن لم توجد ثَمَّ قرينةٌ فهو صالح للزّمان والمكان والمصدر[1]. والأصل في صيغة (مَفْعَلة) الظّرف من اسم المكان والزّمان، وليس ذلك لمطلق اسم الظّرف؛ بل لاسم ظرف بالنّظر إلى كثرة المظروف فيه، فاسم الظّرف دلالةُ المَفْعَل، والكثرةُ دلالةُ التّاء، ثمّ تأتي بعد هذه المعاني المتعدّدة لصيغة (مفعلة) معانٍ مجازيّةٌ أُخرى، وعلى هذا فالكلماتُ الثّلاث: (المَسغبة) و(المَقربة) و(المَتربة) تحتمل كلّ هاتيكَ الدّلالات، وما يَترتّب عليها من معانٍ.

بلاغة التّعبير بالتّأنيث في المسغبة والمقربة والمتربة:

جاءت هذه الكلمات الثّلاث (المسغبة) و(المقربة) و(المتربة) مؤنّثةً؛ لدلالة تأنيث صيغة (مَفْعَلة) على اسم المكان والزّمان؛

(1) الحملاويّ، شذا العُرف، ص: 59.

بالنّظر إلى كثرة المظروف فيهما، فيجتمع بذلك الدّلالة على الظّرف والكثرة.

نُكْتَة الاكتفاء بالعبادات الماليّة في الآية:

يُلاحظ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ اكتفاءُ النّظم الكريم في الذِّكر بالعبادات الماليّة عن العبادات البدنيّة، والنّكتة في ذلك أنّها أشقُّ عَلى النّفس؛ لكون المال شقيقَ الرّوح، لا لكونها أفضلَ الأعْمال، فإنّ الصّلاة أُمُّ العبادات وأفضل المبرّات[1].

المال شقيق الرّوح وإخراجُه أشقّ على النّفس

بلاغة التّقييد في الإطعام واليتيم والمسكين:

لم يأت الإطعام واليتيم والمسكين مُطلقًا في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، فلم يَقُلْ: (أو إطعام يتيم ومسكين)، بل جاء مقيَّدا بالوصف في الكلمات الثّلاث، فقيَّدَ الإطعامَ بقوله: ﴿فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾، وقيَّد اليتيمَ بقوله: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، وقيَّدَ المسكينَ بقوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾؛ للدّلالة على أثر الزّمان والمكان والحَدَث والدّوافع والموانع والملابسات المُحيطة بكلّ ذلك في الثّواب والعقاب من حيثُ القوّة والضّعفُ، والقِلّة والكثرةُ، وغيرُ ذلك، وهذا واضح في حديث السّبعة الذين يُظلهُمُ اللّه في ظِلّه يومَ لا ظِلّ إلّا ظِلُّه، وغيرُه من الأحاديث الشّريفة.

أثر الزّمان والمكان والدّوافع والموانع والملابسات في تفاوت الثّواب والعقاب

نوع ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها البيانيّة:

عُطف قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بحرف ﴿ثُمَّ﴾ الموضوعِ في اللّغة للتّراخي، وقد جوّز المُفسّرون في دلالة التّراخي هنا وجوهًا بليغةً من المعاني[2]:

أثر حروف المعاني في تنوّع البيان القرآنيّ

أوّلًا: أنّ هذا التّراخي رُتْبيٌّ، أي: تراخي الإيمان وتباعدُه في

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 680.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 170.

الرُّتْبة والفضيلة عن العتق والصّدقة؛ لأنّ درجة ثوابِ الإيمان أعظمُ بكثير من درجة ثواب سائر الأعمال. فدلّ على أنّ مضمون الجملة المعطوفة بها أرقى رتبةً في الغرض المسوق له الكلام من مضمون الكلام المعطوفة عليه، فيصير تقدير الكلام: فلا اقتحم العقبة بفكّ رقبة أو إطعام بعد كونه مؤمنًا.

ثانيًا: أنّ هذا التّراخي في الذِّكر فقط لا في الوجود، لأنّه لمّا كان الإيمان شرطًا للانتفاع بالطّاعات المذكورة وجبَ كونُه مُقدَّمًا عليها.

ثالثًا: أنّ هذا التّراخي زمنيٌّ، فيكون المُراد: ثمّ كان في عاقبة أمره من الذين آمنوا، وهو أن يموت على الإيمان، فإنّ الموافاة شرطُ الانتفاع بالطّاعات.

رابعًا: أنّ مَن أتى بهذه القُرَب تقرُّبًا إلى الله تعالى قبلَ إيمانِه بمحمّد ﷺ، ثمّ آمنَ بعدَ ذلك به، فعند بعضِهم أنّه يُثاب على تلك الطّاعات، قالوا: ويدلّ عليه ما رويَ: أنّ حكيم بن حزام بعد ما أسلم قال لرسول الله ﷺ: إنّا كنّا نأتي بأعمال الخير في الجاهليّة، فهل لنا منها شيءٌ؟ فقال ﷺ: «أسلمتَ على ما قَدَّمتَ من الخير»[1].

بلاغة ذِكر فعل ﴿كَانَ﴾:

شـرط الاعـتـداد بالأعـمـال سبقُ الإيمان عليها

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالفعل الماضي ﴿كَانَ﴾، وفيه إشعارٌ بأنّ إيمانَه سابقٌ على اقتحام العقبة المطلوبة فيه بطريقة التّوبيخ على انتفائها عنه. فعَطْفُ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الجمل المسوقة للتّوبيخ والذّمّ يفيد أنّ هذا الصّنف من النّاس أو هذا الإنسان المعيّن لم يكن من المؤمنين، وأنّه ملوم على ما فرّط فيه لانتفاء إيمانه، وأنّه لو فعل شيئًا من هذه الأعمالِ الحسنة ولم يكن من الذين آمنوا ما نفعَه عملُه شيئًا؛ لأنّه قدِ انتفى عنه

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1436).

الحَظّ الأعظم من الصّالحات، فهو مُؤْذِن بأنّه شرطٌ في الاعتداد بالأعمال[1]، والمعنى: كان منهم كونًا جِبِلّيًا موافقًا للفطرة، وكونًا شرعيًّا بإعلان الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ.

نوع ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

اتّصاف الفرد بصفة الجماعة أقوى في الوصف من اتّصافه بها مُنفردًا

ورد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حرف ﴿مِنَ﴾، ومعناه التّبعيض، فقولُه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أبلغُ من القول: (ثمّ كان مؤمنًا)، لأنّ كونه من الذين آمنوا أدلّ على ثبوت الإيمان من الوصف بمؤمن، لأنّ اتّصاف الفرد بصفة الجماعة أقوى في الوصف من اتّصافه بها منفردًا؛ من أجل كثرة الموصوفين بها، فإنّ كثرة الخير خير[2]، ولأنّ الإنسان يتأثّر بالمجتمع من حوله، ويؤثّر فيهم إيجابًا وسلبًا.

بلاغة التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الثّناء على المؤمنين بإيمانهم وأوصافهم

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلته ﴿ءَامَنُواْ﴾ بدلَ الاسمِ الظّاهر؛ لما يُفيده الاسمُ الموصول من عموم الوصف المدلول عليه بصلته، حيثُ أثنى الله سبحانه على المؤمنين بما في حيّز الصّلة من أوّل الأمر، وهو أنّهم صدّقوا بما جاء به محمّد ﷺ، واستقرّ الإيمانُ في قلوبهم، كما يُشعر الموصول بأنّهم عُرفوا بالإيمان بين الفِرق[3]، ثمّ إنّ صلة الموصول تكون كالعِلّة للحُكْم أو كالدّليل عليه.

نُكْتَة إيرادِ الاسم الموصول جمعًا في ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

في إيراد الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ جمعًا في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إشعارٌ بكثرة أهل الإيمان والصّالحين، وهم وإن لم يكونوا أكثرَ الخَلق إلّا أنّهم في أنفسهم كثير.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 360.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 361.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 361، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 03/ 151.

غرض ذِكر الإيمان دون الإسلام في صلة الموصول:

دلالـة الإيـمـان على الإسلام

كلمة (الإيمان) يلزم منها الإسلام بما يدلّ عليه الإيمانُ من الطّاعات وعمل الصّالحات التي تستلزمه، فهو في الحقيقة بلفظه يدلّ على إسلام الإنسان وانقياده لله تعالى، بينما الإسلام لا يلزم منه الإيمان، قال تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14]، وقد فهم البخاريّ رحمه الله هذا المعنى فذكر هذه الآية تحت باب: إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، وجعل هذا الباب في كتاب الإيمان من صحيحه، بينما الإسلام لا يدلّ على الإيمان؛ لأنّه قد يكون خوفًا من فوات مَلذّات الحياة الدّنيا أو حصول الآفات فيها، كالقتل وأخذ الأموال وسبي النّساء.

نُكْتة حذفِ متعلّق فعل ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الإيـمـان لـقـبُ الأمّة الإسلاميّة في عرف القرآن، ولـدلالـتـه على العموم

حُذف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ متعلّق الإيمان للفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ لأنّ المُراد الّذين اتّصفوا بالإيمان الّذي هو لقبٌ لدين الإسلام، وهو الّذي منه أُطلقت صلة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على المسلمين، فصار كالعَلَم بالغلبة، وهذا كقولهم: أسلم، وأشرك، دون ذِكْر مُتعلّقات لِهاتِهِ الأفعال، لأنّ المُراد أنّه اتّصف بهذه الصّفات الّتي صارت أعلامًا على أديان معروفة، فالفعل نُزِّلَ منزلة اللّازم.

ويجوز أن يكون حَذفَ مُتعلّق الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ للعِلم به؛ أيْ: آمنوا بالله وحدَه وبرسوله محمّد ﷺ ودين الإسلام، فجعل الفعل كالمستغني عن المتعلّق.

المـؤمـنـون هم المسلمون الّذين صدّقوا بالرّسول ﷺ

والمُراد من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في الآية هم المسلمون الّذين صدّقوا بالرّسول ﷺ، وهذا لقبٌ للأمّة الإسلامية في عُرف القرآن، ولأنَّ

الإيمانَ صار كاللَّقب للإيمان الخاصِّ الّذي جاء به دينُ الإسلام وهو الإيمانُ باللّه وحدَه[1].

ثمَّ إنَّ حذف مُتَعَلَّقِ الإيمان هنا للدّلالة على العموم أيضًا؛ أيْ: آمنوا بكلِّ ما يجب الإيمان به ممّا جاء به هذا الدّين؛ لأنّه لا يُقبل من الإنسان إيمانُه إلّا إذا آمن بكلِّ ذلك؛ فالإيمانُ ببعض ما جاء به الدّين دونَ البعض كالعدم، قال تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: 85].

نُكتة الإتيان بالصّلة ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعلًا:

جيء بالصّلة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فعلًا لإفادة التّجدُّد والحدوث مع الاستمرار؛ حثًّا بذلك على تجديد الإيمان والاستمرار عليه، وعلى سائر الأعمال الصّالحة والصّفات الحميدة.

سرّ مجيء الصِّلة ﴿ءَامَنُواْ﴾ بصيغة الماضي:

التّحقّق بالإيمان صفاتُ أهلِ الميمنة

في الإتيان بالصِّلة فعلًا ماضيًا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون إيرادها فعلًا مضارعًا إشعارٌ بأنّهم مُتحقِّقون بالإيمان، وذلك هو سبب استحقاقهم الجزاءَ العظيم، وهو كونهم من أصحاب الميمنة المُبشَّرين بدخول الجنّة؛ لأنّ التّعبير بالفعل الماضي يدلّ على تَحَقُّق حدوث الفعل وتَيَقُّنه.

بلاغة عطف التّواصي بالصّبر على الإيمان:

التّنويه بصفات المؤمنين الفاضلة الّتي يتميّزون بها

عُطف في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ التّواصي بالصّبر على الإيمان تنويهًا بصفات المؤمنين الفاضلة الّتي يتميّزون بها، فخَصّ النّظمُ الكريم بالذِّكر من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصّبر؛ لأنّ ذلك من أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فإنّ الصّبر ملاكُ الأعمال الصّالحة كلّها، سواءٌ كان الصّبر على الإيمان والثّبات عليه، أو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 52.

الصّبر عن المعاصي، أو الصّبر على الطّاعات، أو الصّبر على البلاء والمحن الّتي يُبتلى بها المؤمن[1].

بلاغة استعمال صيغة التّفاعل:

تشارك المؤمنين في الدّلالة على الخير

عَبَّر في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ بالفعل ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾، وهو تفاعل من الوصيّة فيقتضي التّشاركَ، بأن يشترك كلّ واحد منهم في الفعل، فكلّ واحد فاعل ومفعول به في الوقت نفسه؛ أيْ: كلُّ واحدٍ يوصي غيرَه، ويوصَى من غيره، أو يوصيه غيرُه، والمعنى: أوصى بعضُهم بعضًا بالصّبر على ما نابهم في ذات اللّه سبحانه، وهذا يدلّ على أنّه يجب على المَرء أن يدلّ غيرَه على طريق الحقّ، ويمنعَه من سلوك طريق الشّرّ والباطل ما أمكنه[2].

دلالة تعدية فعل التّواصي بالباء في قوله: ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾:

الاستعانة بالصّبر ومصاحبته في كلّ وقت وفي كلّ مكان وفي كلّ فعل

تحتمل الباءُ في قوله: ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ أن تكون للاستعانة (باء الآلة)، وأن تكون للمصاحبة، وان تكون للتّعدية، وهي في حال كونها للتّعدية تُشْرَب معنى الاستعانة أو المصاحبة؛ أيْ: يوصي بعضُهم بعضًا مُستعينين في سائر أمورهم بالصّبر، مُصاحبين له ومستصحبينه في كلّ فعلٍ، وفي كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ مكانٍ.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾:

الدّلالة على شدّة احتياج المؤمنين إلى الصّبر

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ للاستعانة (باء الآلة)، أو للمصاحبة، أو للتّعدية، وهي في حال كونها للتّعدية تُشْرَب معنى الاستعانةِ أو المصاحبة، فتعود إلى واحد منهما، وهي في كلّ ذلك استعارةٌ مكنيّة، حيثُ جُعِلَ الصّبر آلةً يُستعان بها، أو شيئًا محسوسًا يَسْتَصْحِبُه الإنسان معه، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، وجاءت الباء للدّلالة على ذلك، أمّا على كون الباء للآلة (للاستعانة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 171، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 361.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 431، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 171.

الآلية): فللإشارةِ إلى كون الصّبر آلةً لازمةً له ليستعينَ بها المؤمنُ على تثبيت الإيمان وتقويته، وأمّا على كونها للمصاحبة: فللإشارة إلى كون الصّبر أفضلَ صاحبٍ للمؤمن يُعينه على تثبيت الإيمان وتقويته، وفي الصّحبة طولُ زمان، فيحتاج المؤمن إلى مصاحبة الصّبر طيلةَ بقائِه على الإيمان؛ ليكون سَندًا له في شدائده كلّها.

معنى تعريف لفظ (الصّبر):

قصد العموم في كلّ مصبور عليه

جاء لفظُ (الصَّبْرِ) في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ معرّفا بـ(أل) الدّالّة على تعريف الجنس، أو على استغراق أفراده، وفي كلا الأمرين تقتضي العمومَ، فيشمل كلّ مصبورٍ عليه، كالصّبر على البلاء وشدائد الأقدار، والصّبر على مشاقّ الطّاعات، وعلى مشاقّ ترك الشّهوات، ويشمل ذلك الصّبرَ على مشاقّ أذى المشركين، وعلى مشاقّ الجهاد والفقر ورياضة النّفس ... إلخ[1].

نُكْتَة عطفِ (المرحمة) على (الصّبر):

الصّبر والمرحمة أشرفُ صفات المؤمنين بعد الإيمان

عُطف التّواصي بالمرحمة على التّواصي بالصّبر في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾؛ لأنّ هاتين الصّفتين أشرفُ صفاتِ المؤمنين بعد الإيمان، فإنّ الصّبر ملاكُ الأعمال الصّالحة كلّها؛ لأنّها لا تخلو من كبح الشّهوة النّفسانيّة، وتَحَمُّلِ مشاقّ الطّاعات، وذلك من الصّبر، وفيه صلاحُ الفرد، والمرحمة ملاكُ صلاحِ المجتمع الإسلاميّ، قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]. والتّواصي بالصّبر والتّواصي بالمرحمة فضيلتان عظيمتان[2].

دلالة تكرار فعل ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾:

التّأكيد على أهمّيّة التّواصي بكلّ واحد منهما وفضله

يُلاحظ في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ تكرارُ فعلِ التّواصي ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾؛ للدّلالة على أهمّيّة التّواصي

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 304، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 488.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 361.

بهما، والتّأكيد على فضل كلٍّ منهما، لدلالتهما على الخير وفضائل الأعمال والصّفات، وفيه إشارةٌ إلى استقلال كلّ نوع منها بوجوه من البِرّ، وفي ذلك إشارةٌ إلى وجوب التّواصي بكلّ واحد منهما منفردًا، فكيف بالتّواصي بهما مجتَمِعَيْن.

سِرُّ تعدية فعل التّواصي بالباء في ﴿بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾:

تحتمل الباءُ في قوله: ﴿بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أن تكون للاستعانة (باء الآلة)، وأن تكون للمصاحبة، وان تكون للتّعدية، وهي في حال كونها للتّعدية تُشْرَب معنى الاستعانة أو المصاحبة، أي: يوصي بعضُهم بعضًا مستعينين في سائر أمورهم بالرّحمة، مُصاحبين لها في كلّ فعل، وفي كلّ وقتٍ، وفي كلِّ مكانٍ.

الاستعانة بالرّحمة ومصاحبتُها في كلّ وقت وفي كلّ مكان وفي كلّ فعل

نُكْتَة التّعبير بجملة ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ دون (وتراحموا):

يلزم من التّواصي بالمرحمة تَحَقُّقُ وجودِ الرّحمة فيهم؛ لأنّ الأصل في المؤمن ألّا يوصي به إلّا وقدِ اتّصف بها، وعَرَف قدرَها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصيَ بها، ولا يلزم من وجود الرّحمة في المؤمنين أن يتواصَوا بها.

التّواصي بالمرحمة يلزم منه تَحَقُّق وجودِ الرّحمة فيهم

الكناية في التّواصي بالمرحمة:

يحمل قولُه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ كنايةً عنِ اتّصاف المؤمنين في أنفسهم بالرّحمة؛ وذلك لأنّ من يوصي بالرّحمة هو الّذي اتّصف بها، وعرف قدرَها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصيَ بها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿*أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: 44][1].

الاتّصاف بالرّحمة شرطٌ في التّواصي بها

المجاز في التّواصي بالمرحمة:

جعل بعضُ العلماء قولَه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ من قبيل

بلاغة الإيجاز وذِكر المُسبَّب وإرادةُ السّبب تنبيهًا على كماله في السّببيّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 361.

المجاز بالحذف، والتّقدير: بموجبات رحمته تعالى من الخيرات، وذلك على حذف المضاف، أو مجازًا مرسلًا بذِكر المُسبَّب (المرحمة) وإرادة السّبب (الرّحمة)؛ تنبيهًا على كماله في السّببيّة.

ويجوز حملُه على ظاهره، فالمرحمة مصدر ميميّ بمعنى الرّحمة؛ أي: أوصى بعضُهم بعضًا بالرّحمة على عباد الله، وهي الشّفقة لمن يستحقُّها من العباد يتيمًا أو فقيرًا، أو نحو ذلك[1]، ولا مانع من إرادة كلّ هذه الاحتمالات، فهم قد تَواصَوا بالرّحمة، وتواصوا بموجباتها من الخيرات التي تُرقّق القلوبَ، وتواصوا بالرّحمة التي تُفْضي إلى المرحمة، بل هذا الجمع أولى؛ لأنّ من لوازم التّواصي بالمرحمة التّواصي بأسبابها وموجباتها، حتّى تَيْنَعَ ثمارُها، وتُؤْتيَ أُكُلَها في المؤمن وفي المجتمع.

التّواصي بالمرحمة يُؤْتي أُكلَهُ في المؤمن وفي المجتمع

بلاغة التّعريض بالمشركين في الآية:

تضمّن قولُه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ فنًّا بديعًا من فنون البيان، وهو (التّعريض)، وهو كون معنى الكلام مفهومًا من عُرضه؛ أيّ: جانبه[2]؛ ففي هذه الآية ذكر الله صفاتِ المؤمنين من التّواصي بالصّبر والتّواصي بالمرحمة، وفيه تعريضٌ بأنّ أهل الشّرك ليسوا من أهل الصّبر ولا من أهل المرحمة، وقد صرّح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصّلت: 33] إلى قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصّلت: 35][3].

فـي ذكـر حال الـصّـادقـين تعـريـضٌ بحال المنافقين

بلاغةُ الإطناب في قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ إطنابٌ في الظّاهر، فلم يقل مثلًا: (ثمّ آمن وتواصى)؛

الإشـارة إلى رسـوخ الصّفة فيـه، وقـوتِـها بكثرة الموصوفين بها معه

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 32/ 22.
(2) العلويّ، الطّراز: 1/ 195.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 361.

وذلك للدّلالة على أنّ فعله هذا لم يكن عارضًا، بل كان فعله كونيًّا ثابتًا راسخًا مستمرًّا، بما تدلُّ عليه ﴿كَانَ﴾، أي: كونًا جِبِلّيًّا موافقًا للفطرة، وكونًا شرعيًّا مطابقًا لما جاء به الرّسولُ ﷺ، ولم يفعل ذلك منفردًا، بل فعله وهو ضمن جماعة تشاركه فِعْلَه، وتفعل مثلَه، وهذا أبلغ من: (ثمّ آمن)، لأنّ كونه من الذين آمنوا أدلُّ على ثبوت الإيمان فيه من الوصف بمؤمن، لأنّ اتّصاف الفرد بصفة الجماعة أقوى في الوصف من اتّصافه بها منفردًا من أجل كثرة الموصوفين بها، فإنّ كثرة الخير خير[1]، ولأنّ الإنسان يتأثّر بالمجتمع من حوله، ويُؤثّر فيهم إيجابًا وسلبًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَسغبةُ والمَجاعةُ:

السَّغَبُ جوعٌ مع التّعب

ذهب جمهورُ المفسّرين من السّلف وأربابِ اللّغة إلى شرح المَسغبة بالمجاعة أو الجوع من غير قيد. قال أبو عُبيدة: ذي مجاعة؛ يُقال سَغَبَ يَسْغَبُ سَغَبًا: إذا جاع، فهو ساغِبٌ، وسغبانُ، وذو مسغَبَةٍ. وقال ابن عبّاس: يريد بالمَسغبة الجوع، وقال مجاهد وعكرمة: ذو مجاعة[2].

وفرّق بينهما أبو حيّان بكَونِ المسغبة هي الجوع العامّ[3]، كما نقل الرّاغب فرقًا لطيفًا بين المسغبة والمجاعة، فقال: "المسغبة من السَّغَب، وهو الجوع مع التّعب، وقد قيل: العطش مع التّعب"[4]؛ فزاد وصف التّعب مع الجوع في المسغبة، وعلى ذلك فالمَسغبة: هي الجوع العامّ مع التّعب النّاشِئ من شدّة الجوع.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 361.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 29.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 479.
(4) الرّاغب، المُفردات: (سغب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والستون،
سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 67 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-69-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 67 : المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-69-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4934554 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"